

وقد ظفرت منك بما أردت، وبلغت من حبك ما أحببت، فشاركتك في سعادتك، وشاركتك في شقائقك، وقاسمتك ما أتيح لك من نعيم، وشاطرتك ما قُضي عليك من بؤس، وعصمت منك نساء الدولة على غير إرادة مني، ومن يدري؟! لعلِّي أثرتُ نفسي من دونهن بخيرٍ كُنَّ يطمعن فيه ويطمحن إليه، ففي نفوس الناس — وفي نفوس النساء خاصة — فساد كثير وشر عظيم تخفيه صروف الحياة وخطوبها، وتظهره محن الحياة وتجاربها، ومن يدري؟! لعل إثمك ذلك المنكر قد جعلك فتنة للعداري كما جعلك فتنة لي، ومن يدري؟! لعل اللاتي رددت عنهن الموت قد كن يحسدنني على هذا الموت، ولعلهن أن يحسدنني الآن على الحياة! بل من يدري؟! لعل هذه الأصوات المهيبة الرهيبة التي تسمعها الآن لا تشكو منك، وإنما تشكو البعد عنك والشوق إليك، ومن يدري؟! لعل هذه الشكاة الملحة المؤذية أن تكون عفوًا عنك واستغفارًا لك، فنفوس الناس عامة — ونفوس النساء خاصة — ألغاز مشكلة معضلة قد عجزت عن حلها حتى فطنة شهرزاد. إن هذه النفس الغامضة التي نغصت أيامك وأرقت ليلالك لا تمتاز بشيء، وإنما هي نفس امرأة لا أكثر ولا أقل. املاً نفسك إذا أيها الملك من هذا الشقاء الذي تشهده الآن، كما ملأتها آنفًا من تلك السعادة التي شهدتها في جزيرة النعيم، واستقبل ليلك وقد ملأت نفسك من البؤس والنعيم جميعًا! فإنك لا تدري أين يجدرك الغد، ولا عمَّ يبتسم لك الصبح، ولا ماذا تضمرك لك الأحداث».

ويحس الملك كأن يد شهرزاد تمضي رفيقة في شعر رأسه فتبعث في جسمه طمأنينة وهدوءًا، وفي نفسه أمناً وراحة وروحًا، ثم ينسى الملك نفسه أو تنساه نفسه، ولكنه يفيق وقد تقدم الليل وأطبقت الظلمة من حوله على كل شيء إلا دُبالة ضئيلة في ناحية من نواحي الزورق تنشر ضوءًا هادئًا غريبًا، وصوت يعرفه ويألفه يقول: «فلما كانت الليلة الثالثة عشرة بعد الألف قالت شهرزاد».

ثم ينقطع هذا الصوت المعروف المألوف ويصل إلى الملك صوت شهرزاد فاترًا أول الأمر، نشيطًا بعد ذلك قليلًا قليلًا وهو يقول: بلغني أيها الملك السعيد أن قادة الملك طهمان بن زهمان أقبلوا عليه حائرين ثائرين يقولون: «إنه السحر أيها الملك! إنه السحر الذي لا عهد به من قبل لأحد من الإنس أو من الجن!»

قال الملك: «نعم، إن السحر الذي لا أعرف له مبدأ ولا منتهى».

ثم التفت إلى ابنته فاتنة كأنه ينتظر منها أن تجيب على ما قال هو وما قال القواد، ولكن فاتنة ظلت قائمة باسمه، في وجهها إشراق يصور نفسًا فرحة مستريحة، ويصور شيئًا من الإعجاب والرضا، ويصور كثيرًا من الأمل والثقة والفوز.